شعائر من كتاب الموت

صرخة أنثوية حادة بها الكثير من النشوة أفاقتني من غيبوبتي اليومية. لم تكن الصرخة طبيعية فتأملتها كثيرا. ممن تكون صدرت هذه الصرخة؟ فيها الكثير من صوت زوجتي. أوتكون قد أصابها مكروه؟ و لكن كيف هذا و أنا أراها إلى جانبي تغط في نوم عميق؟ بالتأكيد ليست هي. و لكن أليس هذا صوت شقيقتي تواسيها؟ أين هي؟ وكيف أسمع صوتها دون رؤيتها؟ أويكون الأمر أضغاث أحلام؟ و لكن كيف لي أن أرى وأسمع بوضوح بينما أنا مستغرق في النوم؟ ها أنا بالفعل أنام إلى جوار زوجتي الغائبة في غيبوبتها الخاصة. علّها الآن تحلم بأحلام سعيدة أو غير سعيدة، لست أدري، لكنها بالفعل نائمة. أجل.. ها هي يرتسم على وجهها شبح بسمة جميلة كأحلامها التي بلا شك ستكون هنيئة. و لكن من أين جاءت هذه الصرخة الجزعى؟ أحاول النهوض ولكني أفشل. شيء ما يجعلني مرتبطا بفراشي. أجاهد مستنفذا قدرا كبيرا من طاقتي فأستسلم لعجزي. أسترق السمع فإذا صوت شقيقتي الواضح تقول باكية :

– كان بدري عليكي يا حبيبتي .. قتلك و هو يذوب فيك عشقا.

عدم التجانس في الجملة جعلني أضحك ملء فيّ. من أين لها بهذا التركيب اللغوي العجيب؟ أعجبني النصف الثاني من الجملة؛ فجعلني

أتأمله طويلا. ولكن من هذا الذي يذوب فيها عشقا؟ هل هناك من يعشقها غيري؟ أوتكون خائنة؟ أحاول إبعاد الفكرة عن خاطري، فأراها عارية تماما بينما يد ما تمتد متحسسة جسدها. إن مسام جلدها غير الواضحة تتفتح كزهرة يانعة لتلك اليد الغريبة. أدقق النظر في اليد البضة التي تصول وتجول بلا مانع يعوقها. صوت مقرئ ما يعلو مرتلا :

– "فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون".

أهز رأسي موافقا ومؤمنا على قول المولى عز وجل. ولكن من أين لي بهذه اللحظة الإيمانية؟ أرى اليد تقترب وكأنها جزء من كادر سينما. يكتمل الجسد المتصل باليد فإذا بها شقيقتي متجردة من ملابسها. أندهش مرتعدا. ما هذا الذي يفعلانه؟ إنهما تتضاجعان في مشهد سحاقي قاس. أناديهما محاولا منع هذه المأساة المرتسمة أمامي. أنظر إليها حيث تستلقي جانبي محاولا إيقاظها إلا أنها قد اختفت. أهي تفعلها حقا؟ أذكر أنني قد سمعت ولولة على امرأة ما ربما هي زوجتي، كما أن صوت المرتل ما زال صداه يملأ رأسي. إذن فهناك من مات، وهناك من يُبكى عليه و لكني عاجز عن معرفة الحقيقة. لماذا لم يحاول أحد إيقاظي؟ ومتي أخذتني هذه السنة من النوم؟ أذكر أنني ضاجعتها مرتين أو ثلاثا، لست أذكر. كما دخنت علبة من السجائر، وقرأت كثيرا في "الظاهرة اللاواقعية"، بعدها احتسيت كأسين من النبيذ أو لعلهم عشرا، ثم تحدثت مع صديقتي ذات العينين الزرقاوين. هل تبادلنا الحب في الهاتف؟ و لكن أنّى لنا أن نتبادله

هاتفيا؟ أحاول ترتيب أفكاري المتناثرة بصعوبة. أشعر وكأنني في كابوس لا ينتهي. كان صديقي ذو الشارب الكث يقول لي دائما :

- هل جربت أن تساحق امرأة؟

كثيرا ما كنت أندهش. وهل لي أن أساحق امرأة؟ حينما كنت أسأله هذا السؤال كان يختفي وكأنه لا وجود له. إلا أن دهشتي تصاعدت حينما رأيت شقيقتي تمتص نهديّ زوجتي. أحاول تصحيح المأساة، فأرى قضيبا ضخما يملأ فراغ الغرفة قد انبثق بين فخذي شقيقتي. يملؤني الفزع. بالتأكيد ستقتلها إذا ما حاولت إتيانها بهذا الشيء العظيم. أناديهما للحد من وقوع المأساة، إلا أنهما- ويا للغرابة- اندمجا بعد الاندساس العظيم و كأنه لا شيء. إن الأشياء تأخذ بعدا آخر غير ذلك البعد المألوف. شيء من اليقين انتابني أن هناك شيئا لا واقعي يحدث. أجول ناظرا حولي. زجاجة خمر فارغة تماما جوار مجموعة الكتب التي قرأتها بالأمس. أجل، وها هي أعقاب السجائر التي لا حصر لها بجوارها. ضيق شديد يثقل على صدري حتى لكأن الهواء المحيط له وزن يكاد أن يقرب من مئات الأطنان. أرى باب الغرفة منفرجا بعض الشيء، وهناك ضوء ما يأتيني منسربا من فرجته. إذن فثمة من يجلس في الخارج. أجل، إن صوت الولولة والنحيب يأتيني واضحا جليا. كما أن صوت أطفالي الصغار الذين لا يكفون عن الضجة يتردد بين الفينة والأخرى. ها هو صوت زوجتي يوبخهم، به شيء من النشوة الممتزجة برنة حزينة ثكلى. صوت المرتل أسمعه في الخلفية الصوتية للجميع. صوت أحدهم ينطلق :

- وحدووووه .. كل من عليها فان.

يرد عليه آخرون :

- ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

تزداد دهشتي المتصاعدة. من هو الذي مات؟ أوأكون أنا؟ ولكن كيف يتأتى هذا بينما أنا أرى و أسمع ما يحدث حولي؟ أذكر أن الذي ولولت عليه شقيقتي قبل مساحقتها لزوجتي كان زوجتي و ليس أنا. ها هو صوت صديقي ذي الشارب الكث يواسيها :

- لا تحزني .. كفاك فخرا أنه مات وهو في قمة شموخه العلمي.

إذن فهو يقصدني أنا. أحاول مناداته فأرى الباب يزداد انفراجة ليدخل مجللا بالسواد بشاربه الضخم، الذي يكاد أن يغطي وجهه بأكمله. ينظر نحوي وقد بدت على وجهه بسمة لا معنى لها، ثم يطأطئ رأسه مبديا الكثير من الحزن العميق. تدخل زوجتي متشحة بملامح الحداد. كان منظرها مثيرا للضحك بوشاحها الأسود الذي تلفه حول رأسها بينما باقي جسدها عار تماما. صديقي ذو الشارب الكث يطوقها بذراعيه. إنهما يمارسان طقوسا جنسية جنائزية. يتجرد من ملابسه فتصدمني الدهشة. هناك هوة سحيقة لا قرار لها بين فخذيه. هل هذا ما كان يقصده حينما قال لي هل جربت أن تساحق امرأة؟ أسمعه يهمس بحميمية :

- لا بد أن نفعل؛ فتلك كانت رغبته رحمه الله.

إن الوغد يساحقها. كيف لي أن أمنعه؟ أتأمل وجهها الذي يكاد أن

يتفجر من فرط اللذة فتتصاعد شحنة الغضب داخلي. صوت المرتل ما زال يملأ الخلفية السمعية للمشهد. أوأظنه الموسيقي التصويرية؟ ما هذه الأفكار التي تملؤني؟ يبدو الأمر وكأنه شريط سليلويد سينمائي متحرك. أذكر مقالي الذي كتبته عن رفض الميتافيزيقا الدينية مدعما بالكثير من البراهين. كان عن فيلم ذهني قاس يذكرني بما أراه الآن. ينتهي صديقي ذو العينين الزرقاوين مما يفعله فيعود إلى ذكورته. لون عينيه يذكرني بصديقتي التي هاتفتني بالأمس. هل هناك ارتباط ما بينهما؟ أذكر أنني قد رأيت زوجتي مستلقية جواري عند سماع الصرخة. أجل، ها هو وجهها الذي يملؤه الفزع يقترب من وجهي. لم هي جزعى هكذا؟ عيناها فيهما الكثير من الرعب. إنها تخبط صدرها بجنون حتى لتكاد أن تمزقه. ها هو الدم يكاد أن ينبثق من لحمها الطري. إنها تمسح شيئا ما ينزلق من زاويتي فمي بغزارة. حالة الاختناق الشديد تعاودني. أكاد أشعر وكأن تنفسي قد صار مستحيلا. حالة ما من القيء الشديد تمنعني من التنفس. أحاول القيام ولكن شعوري بالأثيرية- وكأنني لا شيئ- يتملكني فأعجز عن الفعل. أراها تناديني بقوة أعرفها من تعبيرات وجهها، إلا أن صوتها يأتيني متلاشيا و كأنه صادر من أعماق جب سحيق فيصل إلى مسامعي وكأنه أطياف صوت. أقول لها مطمئنا :

- لا تجزعي، ليس هناك شيء.

إلا أن الأمر يبدو و كأنها لا تسمعني فتزداد نحيبا وولولة. بكل ما أوتيت من قوة أحاول تهدئتها ولكن الوهن المسيطر عليّ يجعلني أكف عن المحاولة.